بسم الله الرحمن الرحيم

دفع الهوى عن فهم

﴿ الرَّحمنُ على العرشِ اسْتوَى ﴾

الحمد لله الذي جعل العلم منارة، والصلاة والسلام على أفضل من أتقن العبارة وعلى آله الذين تميَّزوا بفهم العلوم إشارةً كانت أم عبارة وعلى كل من سلك السبيل وزاده إنارة.

أما بعد ،،،

فهذه رسالة يسيرة تنشرح لها السريرة سميتها "**دفع الهوى عن فهم ﴿ الرَّحمنُ على العرشِ استوَى ﴾**".

اعلم أن الإيمان بالعرش واجب، وهو أعظم مخلوقات الله تعالى، لا نعلم حقيقته، وليس هو على صورة معينة كما يتوهم المشبهة الذين يتخيلون أن الله تعالى جالسٌ عليه – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً– والعرش في اللغة له عدة معاني كما قال الراغب الأصبهاني في المفردات، والزبيدي في شرح القاموس، والرازي في مختار الصحاح وقال آخرون من معانيه السقف قال تعالى: ﴿ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا ﴾(البقرة: من الآية259)، وقال: ﴿ وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾(النحل: من الآية68)، والعرش الهودج للمرأة، والعرش مجلس السلطان اعتباراً بعلوه قال تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ ﴾(يوسف: من الآية100)، والعرش سرير الملك قال تعالى: ﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴾(النمل: من الآية23)، وقال: ﴿ أَهَكَذَا عَرْشُكِ ﴾ (النمل: من الآية42)، والعرش العز والسلطان والمُلك، قالت العرب: فلانٌ ثُلَّ عرشُه أي ذهبَ مُلكُه، قال زهير:

تـــداركتما الأحـــلافَ قـــد ثُـــلَّ   وذبيـــانَ إذ زلَّـــت بأحلامِهـــا النعـــل

والعرش رئيس القوم المدبِّرُ لأمرهم، وبه فسر قول الخنساء:

كـــان أبـــو حســـان عـــرش حـــوى   ممـــا بنـــاه الـــدهر دان ظليـــل

أي كان يظلنا برأيه، وللعرش معاني كثيرة يصعب حصرها في هذه العجالة ومن أرادها فعليه بالمطوّلات من كتب اللغة وفي حديث بدء الوحي أن النبي ﷺ: ﴿ رأى جبريل عليه السلام ساداً بين الأفقين فقال: فرفعت رأسي فإذا هو قاعد على العرش في الهواء ﴾(رواه مسلم)، أما معنى العرش بالنسبة لله فهو مما لا نعلم معناه على الحقيقة إلا بالاسم وليس كما تذهب إليه أوهام العامة فإنه لو كان كما يتوهمه كثير من الناس لكان حاملاً لا محمولاً تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً، والله تعالى يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ﴾(فاطر: من الآية41)، ويقول: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾(البقرة: من الآية255)، وفي حديث أبي ذر الطويل الذي أخرجه الحافظ ابن جرير في تفسيره والبيهقي في الأسماء والصفات وسعيد بن منصور في التفسير وابن حبان في صحيحه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: ﴿ يا أبا ذر ما السموات السبع مع الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وفضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة ﴾ وعند البخاري: ﴿ وكان عرشه على الماء ﴾ فيه تنبيه بأن العرش لم يزل منذ وجد مستعلياً على الماء ومعنى قوله تعالى: ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴾(البروج:15)، وقوله تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ (غافر: من الآية15)، كناية عن ملكه وسلطانه لا مقره وقراره – تعالى الله عما يقول الجاهلون علواً كبيراً– فالحاصل أن نصوص الكتاب والسنة واردةٌ بذكر العرش وإثباته، فالإيمان بوجوده واجبٌ وأنه مخلوق عظيم لا يعلم حقيقته بشر جعله الله سقفاً للمخلوقات وتعبَّدَ بعضَهم بحمله قال تعالى: ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾(الحاقة: من الآية17)، مع وجوب الاعتقاد أن العرش محمول بلطف الله كبقية المخلوقات صغيرة كانت أو كبيرة فهي بالنسبة للخالق سواء لا يعجزه عنها شيء مستغنٍ عنها جميعاً ليس كما قالت اليهود بأنه سبحانه بعد خلق السموات والأرض تعب واستلقى على العرش؛ فإنَّهم يتصوَّرون أن الله سبحانه جسم وأنه يجلس على سرير وكرسي، سبحانه ما أحلمه عليهم حين لم يخسف

بهم بل أخَّرهم إلى أجل معلوم وعقاب محتوم وهو القائل: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾(قّ:38)، وأما ما يتوهمه بعض الناس في فهم قوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(طه:5)، بمعنى جلس أو استوى استواءً يليق بجلاله ويقولون بالكيف وما سوى ذلك من تفسيرات منشأها الهوى والجهل بكيفية التعامل مع النصوص واعتقادٌ باطل لا يليق بالذات الموصوفة بكل كمال يليق بها المنزهة عن كل نقص في حقها، فإن الذي جرى عليه العمل عند علماء أهل السنة والجماعة من حنفية ومالكية وشافعية وحنابلة المتمثلين بالأشاعرة والماتريدية كما هو مشاهد ومنصوص عليه في كتب الاعتقاد لديهم أن القرآن فيه متشابه ومحكم وأن السنة كذلك، وكله له شواهدٌ في لغة العرب التي هي لغة القرآن، ولأن ذلك كله من عند الله فلا يتناقض ولا يأتيه الباطل ولا يعتريه شك إلا عند الذين في قلوبهم مرض، وقد نبَّه الحق سبحانه وتعالى إلى هذا الصنف من الناس بقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُو الأَلْبَابِ ﴾(آل عمران:7)، وقد قسم علماء الأصول القرآن والسنة إلى محكم ومتشابه وعرَّفوا المحكم بقولهم هو الذي لا يقبل إلا معنى واحد بحسب اللغة العربية وسموه النص أي ما كان صريح اللفظ صريح المعنى مثل قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(الشورى: من الآية11)، وقوله: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً ﴾(مريم: من الآية65)، وقوله: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص:1-4)، أما المتشابه فهو الذي يقبل أكثر من معنى بحسب وضع اللغة العربية وسموه الظاهر أي ما كان ظاهر اللفظ يشترك بالمعنى ولكن حقيقة اللفظ تدل على معنى آخر بقرينة، والقرائن كثيرة عقلية ولغوية وقد أحاط بها علماء أصول الفقه فانظرها، ومثالها: ﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾(البقرة: من الآية185)، فكلمة الشهر حسب

الظاهر تفيد ثلاثين يوماً ولكن حسب ما فهم من المعنى أنه اليوم الأول من الشهر وليس كل الشهر وذلك حسب ما دلَّت عليه القرينة العقلية وقوله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (البقرة: من الآية183)، فكلمة الصيام حسب الظاهر من اللغة العربية مطلق الإمساك عن كل شيء، ولكن حسب ما فهم من المعنى أنه الإمساك عن شهوتي البطن والفرج من الفجر الصادق إلى تحقق غروب كامل قرص الشمس في الأفق وذلك حسب ما دلت عليه القرينة الشرعية، وهكذا العمل في كل ما كان من قبيل الظاهر في الكتاب والسنة، ولأجل هذا قام العلماء بوضع القواعد والتي منها: إذا تعارض المتشابه مع المحكم فيحمل المتشابه على المحكم لأجل عدم الوقوع في المحظور، كما هو مشاهد على غالب الناس اليوم ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، ومن المتشابه ما نحن فيه من فهم هذه الآية الكريمة التي تقول: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(طه:5)، فهي بحسب اللغة العربية لها عدةُ معاني منها استوى بمعنى التساوي قال بعض بني تميم: (فاستوى ظالم العشيرة والمظلوم أي اعتدلا)، ومنها تمام الشيء قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ﴾(القصص: من الآية14) أي تمَّ، ومنها القصد إلى الشيء قال تعالى: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ ﴾(فصلت: من الآية11)، أي قصد خلقها، ومنها الاستقرار قال تعالى: ﴿ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ﴾(هود: من الآية44)، أي رست واستقرَّت، ومنها القهر والغلبة والاستيلاء قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾(الأنعام: من الآية18)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾(الأعراف: من الآية127)، أي السيطرة والإحكام والاستيلاء والغلبة، وقول العرب:

إذا ما علونا واستوينا عليهم ... جعلناهم مرعى لنسر وطائر

وقال ابن الجوزي:

إذا ما غزا قوم أباح حريمهم ... وأضحى على ما ملكوه قد استوى

وقيل:

قــد اســتوى بشــرٌ علــى العــراق مـــن غـــير ســـيف ودم مهـــراق

وقال الراغب الأصبهاني في المفردات مادة "سوا" الاستواء متى عُدِّيَ بعلى اقتضى معنى الاستيلاء كقوله تعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾(طه:5)، وقوله: ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾(الأنعام: من الآية18)، وقوله: ﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾(الأعراف: من الآية127)، وأما حمل الآية على معنى استقرَّ وجلس، أو معنى يحتمل عدة وجوه زيادة على إضافة كلمة بذاته فهذا ممَّا لم يقل به أحدٌ من المسلمين ولا هو ثابت لا في كتاب ولا سنة إلا عند بعض الفرق ومنها الكرَّامية وهم أتباع مُحَمَّد بن كرَّام، وقد اتفق علماء الإسلام على القول بتكفيرهم كما هو ثابت في الفرق بين الفرق لأبي منصور البغدادي، والتبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية من فرق الهالكين لأبي المظفر الإسفراييني، وكتاب اعتقادات فرق المسلمين وفرق المشركين للرازي وغيرها من كتب أهل السنة المعتمدة في هذا المجال، فعليك بها ليطمئنَّ قلبك مما نقول، أمَّا من قال مُرُوها كما جاءت فهذا كلام صحيح وهو قول الإمام أحمد في بعض هذه المقامات، وكذلك من قال آمنت بما جاء من عند الله على مراد الله وبما جاء من عند رسول الله على مراد رسول الله فهو مصيب أيضاً وهو قول الشافعي وهو بمعنى مراد أحمد رضي الله عنهما، وأما من قال الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه ولا يقال له كيف والكيف عنه مرفوع فهو مصيب أيضاً وهو قول مالك ﷺ من رواية عبد الله بن وهب وكذلك من قال الاستواء معلوم والكيف غير معقول فهو أيضاً لمالك من رواية يحي بن يحيى الليثي ولا يوجد عن مالك سوى هاتين الرِّوايتين ومن ادَّعى غير ذلك فعليه بالدليل، وكذلك من قال استوى بلا كيف فهو مصيبٌ أيضاً؛ لأنَّ الله مرفوعٌ عنه الأين والكيف، ولماذا؛ لأن الكيفية عن الله وعن صفاته منفيَّة كما قال الخطابي، فهو تعالى: ﴿ لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾(الأنبياء:23)، أمَّا من قال استوى بمعنى استولى وقهَر فهذا مصيب أيضاً وله ما يدلُّ عليه من القرآن والسنة، فمن القرآن ما مرَّ معنا، وكذلك من السنة حديث أبي ذر الذي رواه غير واحدٍ وقد مر آنفاً،

وكذلك ما رواه أبو منصور البغدادي بسنده المتصل إلى سيدنا علي بن أبي طالب إمام التوحيد ومصباح التفريد عليه السلام أنه قال: "إن الله خلق العرش إظهاراً لقدرته ولم يتخذه مكاناً لذاته" ويؤيد قول سيدنا علي عليه السلام ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾(الحديد: من الآية3)، وكذلك ما رواه مسلم في صحيحه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: "اللهم أنت الأوَّل فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء" قال الإمام البيهقي في كتابه (الأسماء والصفات): "استدل بعض أصحابنا بهذا الحديث على نفي المكان عن الله تعالى"، ثم قال: "فإذا لم يكن فوقه شيءٌ ولا دونه شيء لم يكن في مكان"، وقال الإمام البغدادي في الفرق بين الفرق: "وأجمعوا على أنه لا يحويه مكانٌ ولا يجري عليه زمان"، وهو قول كل علماء الأصول عند أهل السنة ونقل عنهم غير واحدٍ من الذين ألفوا كتب العقائد مثل ابن فورك، والباقلاني في الإنصاف، وإمام الحرمين في العقيدة النظامية، وابن عساكر في رسالته، والبغدادي في الفرق بين الفرق، والإسفرايني في التبصير، والغزالي في الاقتصاد، وأبو حنيفة في الفقه الأكبر، والطحاوي في العقيدة الطحاوية، والنَّسفي في العقيدة النسفية، والتفتازاني في المقاصد، وابن مكي في العقيدة الصلاحية، والسنوسي في العقيدة الصغرى والوسطى والكبرى، واللقاني في الجوهرة، وأحمد الدردير في الخريدة، وأبو عبد الله مُحَّد العربي الفاسي في مراصد المعتمد في مقاصد المعتقد، وأبو العباس أحمد المقري المغربي في إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة وغيرهم كثير، ولكن التنصيص على هذه الكتب بعينها؛ لأنها معلومة معتمدة في جامعات الإسلام القديمة والحديثة كالزيتونة بتونس والقرويين بفاس والأزهر بمصر والنظامية ببغداد والأمويين والفتح بدمشق والفلاح بمكة وغيرها من أماكن التعليم القديمة والحديثة.

قال ابن مكي في متنه (حدائق الفصول):

وَصَانِعُ العَالَمِ لاَ يَحْويهِ — قُطْرٌ تعالى اللهُ عَن تَشْبيهِ

قَــد كَــانَ مَوجُــوداً ولا مكَــانَ　　وَحُكمُـهُ الآنَ عَلــى مَــا كَــانَا

سُــبحانَهُ جَــلَّ عَــنِ المكَــانِ　　وَعَــزَّ عَــن تَغَــيُّرِ الزَّمَــانِ

فَقَــــد غَــــلا وَزَادَ فِي الغُلَّــوِّ　　مَــنْ خَصَّــهُ بِجِهَــةِ العُلُــوِّ

وما أجمل قول من قال: "لا العرش يحمله ولا الكرسيُّ يسنده بل العرش وحملته والكرسي وعظمته الكلُّ محمولٌ بلطف إرادته"، والله ورسوله أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على سيدنا مُحَّمَّد وعلى آله الطيبين الطاهرين

حرره خادم العلم الشريف أبو الفضل أحمد بن منصور قرطام

الحسيني المالكي الفلسطيني كان الله له ولوالديه

ولكل من كان له فضل عليه بمنه

وكرمه آمين آمين آمين.

إعداد:

قسم البحوث والدراسات

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم

11 شوال 1428هجري الموافق 22 أكتوبر 2007 رومي